عبقريته الحربية

كُسِبت المعاركُ الحاسمة لأسباب لا تحصى ، وكسبت معاركُ شتى للسبب ونقيضه ، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها إلى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة .

كُسب بعض المعارك لأن الأقواس[1] كانت أكثر من السيوف ، وكُسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس .

وكُسبت معاركُ حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار ، وكُسبت معاركُ غيرُها لأن الرماح كانت تتلاحق فى طولها على حسب الصفوف .

وفى بعض المعارك كان الفرسان فى الوسط فقيل إن هذا كان من دواعى النصر العاجل ، وفى معاركَ أخرى قيل إن دواعى النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على الجانبين

وكثيراً ما يقال إن اشتراك الفرسان والمشاة فى العمل كفيلٌ بالغَلَبة فى بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدانٍ آخر فيقال

(١) الأقواس : جمع قوس ، آلة الحرب المعروفة ، وتجمع أيضاً على (قسى) .

إن تربُّص الفرسان بمعزِل عن القتال إلى ساعة الفصل هو الكفيلُ بالغلبة المؤزَّرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل إن ظهور الفرسان فى ميدان يضيق عن حركات المناورة جنَى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشلُ فى صفوف هؤلاء وهؤلاء . .

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موجزة فيقولون كلاماً يحسُن الاطلاعُ عليه ، ولكنه كلام يقرؤه القائدان معاً فيبوء أحدُهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة .

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التى تُوجز لك البلاغةَ الشعرية فى كلمات ثلاث وهى : الوزن ، واللفظ ، والمعنى . ولا خطأَ فى هذا الإيجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلِّم الشاعر الصواب .

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان ، وأن القائد الموفَّق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمِد إلى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ، ولا يتقدم أو يتأخر ، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق . .

وإذا كان كل شىء فى المعركة يتوقف أحياناً على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق إلى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار

فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هناك ، وكذا أو كذا من الحركات إلى اليمين أو إلى الشمال وإلى الأمام أو إلى الوراء ، فتفضيلُ أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضربٌ من المستحيل ، لأن إثباتَ الفوارق بين المعسكرين فى الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غيرُ ميسور . وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالإجمال دون التفصيل . .

وإجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تُعْوِزْهُ قَطُّ صفةٌ من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهى الشجاعة والنشاط والجلَد واليقظة وحضور البديهةِ وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

كان يضع الخطةَ فى موضعها ساعةَ الحاجة إليها . فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحياناً بغير كمين ، وكان يستخدم التورية[1] والمباغتةَ والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال . وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال .

وعلم أن الخبر قوةٌ وسلاح . فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرًا من أخباره يفيده أن يحميه من بأسه

(١) التورية : التمويه والخدعة .

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغْفُلُ عن القوة الأدبية يعزُّزها ما استطاع فى جيشه ، ويُضعضعها ما استطاع فى جيش عدوه .

فكان هو نفسُه مادةً لهذه القوة الأدبية تجيشُ بها نفوسُ أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطرَ الهزيمة ، وتَشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الذعرُ وتفارقهم الثقةُ والطمأنينة .

* * *

وإلى هذا كان يعتمد على قوة الإيمان وهِمَّة الأمل ، فيتعهدُ جيشَه بالعِظات قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغولٌ بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع ، فيعمل ويقول القول الذى هو ضَرْبٌ من العمل فإذا قال : « إن الصبر عِز ، وإن الفشل عجز ، وإن الصبر مع النصر » فليست هى أصداء تمر بالهواء ، ولكنها هى العزُّ والصبر ماثلان للعيان ، يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمعٍ وجنان .

وإلى هذا وذاك كانَ يثير المنافسةَ الكريمة فى صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر لينفثَ فيهم مع عزيمة الإيمان عزيمة أخرى من حب الفخار ، وخوفِ المسبة والعار .

ويتخذ من الغيرة على العِرض مددًا لهذه العزائم التى تواجُه

الموتَ على حد قوله كما تواجه الحياة ، فإذا بالرجل الفرد يُبلى فى قتاله ما ليس يُبليه عشرات . .

* * *

ولم يخْف عليه قطُّ مقتلُ العدو من قسوته الأدبية حيثما عمد إلى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة . فإنهم فى جيوش الأُمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يتحدَّرُ رعاياهم إلى مقام القطيع السائم[1]. فإذا أُصيب القائد فى الجولة الأُولى فكثرة الجند بعد ذلك مِعوانٌ على الهزيمة وليست على الوقاية منها ، لأنها كثرةٌ من الخوف والذعر وليست كثرةً من الثقة والثبات .

ولقد كان هو يخلق فنونَ الحرب التى يجمعها «الخبراء» فى عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخُطط والمعلومات . .

قرأنا فى كتاب «فن الحرب اليوم»[2] لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : «عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نُحضِر فى أذهاننا

---

(١) السائم : السائمة هى الإبل أو الماشية التى تترك لترعى حيث شاءت .

(٢) Warfare Today تأليف الأميرال باكون والجنرال فلو ومارشال الطيران باتريك بلايفير .

أنه مع استثناءٍ قليل لم يكن ثمةَ إلا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال . وهما السلاحُ المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أى النَّبلُ أو السهم أو الرصاصة من جانب . والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر . ومُجمل ما يقال بعد هذا أن الصفَّ هو أنسبُ الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف ، وأن الكُردوس أنسبُ الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب . لأن الرماةَ بالقذائف يحتاجون إلى مدًى مكشوف ، وإنما يتأتى الضربُ فى العمق كَرَّاتٍ متلاحقاتٍ من المقاتلين جماعاتٍ جماعات » .

إن خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفْتْه شىء بفواته عنه ، لأنه قد عِلم كُنْهَه ولُبابه من بديهته الحربية ، فقاتل بالصفوف حيث تُغنى الصفوف ، وبالكراديس حيث لا تغنى إلا الكراديس .

وفى هذا الكتاب أيضاً يقول المؤلفون : «يتضح مما تقدم أنه فى حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان : وهما الاستطلاع وكتمان الحركات . والغرض من الاستطلاع وزنُ قوة العدو ، ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك ، وتوقُّع الهجمةِ من أى موضع تكون » . .

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث

فيقولون : «وعلى هذا يجرى الاستطلاعُ من الهواء قبل الحركات الأُولى وفى خلالها ، وتتقدم الكراديسُ أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين تُدعى إلى الهجوم » .

وهذه هى ربيئَة[1] خالد للاستطلاع ، ومسيرُه «على التعبئة الكاملة » التى يهجم بها ساعةَ اللقاءِ بالنظام أى كان يسير عليه ، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيل التقاذف بالنبال والسهام . .

ونقرأ فى كتاب «الأَسلحة وفنون التعبئة »[2] لمؤلفه ونترنجهام الذى كان محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : «إن سرعة الحركات وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن ــ كما كانت فى كل زمان ــ بعضُ مفاتيح النصر التى لا شك فيها ، فإذا كسبت المعارك أحياناً بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا إنما تُستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الإصابة أو فى تدبير الوقاية » .

وخالد بن الوليد لم يقسِّم فنَّ التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة

---

(١) الربيئة : الطليعة الذى يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه .

(٢) Wintringham : Weapons and tactics

بهذا الاقتحام ، ولا يزال واثقاً بالوقاية حيثما حارب وظهرُه إلى الصحراء أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قَوام .

* * *

ووضع الخبير الحربي المشهور ليدل هارت[1] كتاباً مستقلا عن فن سوْق الجيوش على طريق التورية لخَّصه فى قوله : « إن التحرك فى الوجهة المتوقَّعة يحفظ توازنَ العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرتَه على المقاومة ، وفى الحرب - كما فى المصارعة - إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتُخِلَّ توازنَه باستنفاد قوتك أنت استنفاداً لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمُك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحوٍ من الأنحاء . وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذلك . وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد ، وفى جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، أن الإخلال بتوازن العدو نفسياً ومادياً هو المقدِّمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه » . .

وهذا الإخلال بالتوازن هو الغايةُ التى كان يتوخَّاها ابن الوليد ،

---

(١) The Strategy of Indirect approach : by Lindell Hart

إما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، وإما بالمفاجأة التى لا تُتوقع بحال من الأحوال ، وإما بالكمين الذى يُدخِل اليأْس على العدو فى ساعة حَرِجة . وإما بالتطويق من حيثُ لا ينتظر التطويق .

وكل أُولئك مفهوم جِدَّ الفهم أن يُزلزل الأقدامَ ويُخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الإنسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكنَّ القدرة حقَّ القدرةِ هى معرفة الوقت ، ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عُرف الوقت وعرفت الوسيلة ، وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين . .

وقال خبير حربى آخر هو أرثر برنى[1] فى كتابه « فن الحرب » معقِّباً على حروب الفرس واليونان : « كانت قوةُ الفرس جنودًا ، قائمة على الخيَّالة والرماة . وكانت طريقتُهم فى القتال أن يُمطروا العدو سهاماً ، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين ، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان ، وكانت التبعة فى خيبتها على

---

(١) The Art of War : by Arthur Birnie.

ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا - وكل شيء يتوقف على هذا - تناولوا المشاةَ الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة . . »

ولو عمَّم هذا الخبير القول . وجب أن يقول إن الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد بن الوليد ، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجُنَّة[1] التى احتمى بها العربُ من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة فى بعض الأحيان ، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصدقُ من قواعد الخبراء «الذى تغلبُ به الْعبْ به » ، وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف . فلم يلق الفرس ولا الروم إلا فى التحام .

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة » الذى سبقتْ الإشارةُ إليه حين قال : «إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوعُ النسب إلى السماء ، فإنها تنتظم

---

(١) الجنة : (بضم الجيم) : الوقاية .

على سُنَنٍ فحواها أن التغيير لا ينبغى ، وأن العادات المأثورةَ كلَّها حسنة قويمة ، وأن كل ما يُعمل الآن خليقٌ أن يُعمل كما قد عُمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعضُ الأُمم التى هى أقربُ إلى التقدم بفترة من فترات الراحة ، تُستبقى فيها التقاليدُ والمأثورات على سُنَّة المحافظة على القديم . فإذا برزت جماعاتٌ من هذا القبيل للقتال برزتْ وفى رءوس قوادها وجنودها فكرةٌ عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططَهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصولٌ رجعية للحرب ، أو لم تكن لهم فيها أصولٌ على الإطلاق ، ولكنهم يمْضون بحكم العادة وفاقاً للترتيب الذى وُضع منذ عهد بعيد . وإن هذه الجماعات لتخرج جيوشاً ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأُمم التى يسهل عليها اتخاذُ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ » .

ولو شاء صاحب هذا الرأى لشمل الدولة الرومانيةَ فيما حكم به على الدول الآسيوية ، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزَها عن ابتكار الجديد .

وجملة القول أن خالدًا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناساً

رثَّتْ[1] عقائدهم كما رثَّتْ ملَكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبى الضرورة عفْو الساعةِ فى ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فإذا بدا له أن الخيالة لا تُجدى فى الحركة جدوى المشاة ترتبت حركاتُ الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ ، فيترجَّلُ وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كرِّه وفرِّه وهجومه ودفاعه .

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفعُ من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هى إلا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعاتُ كل منها إلى قائدها المختار : « تمايزوا أيها الناس » ، فإذا هم بعد لحظات متمايزون . . .

وكانت مادةُ القتال التى يعمل بها من جند أو سلاحٍ تُغنيه وتُلَبِّيه . فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقدُ مفقود ، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو ربُّ القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معوَّدون فى غزواتهم أن يكرُّوا بعد

---

(١) رثت : بليت .

فَرٌّ ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضرباً من التحفز للوثوب . أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعاً كما تتساقط حجارةُ اللعب المرصوصة إذا سقط منها الحجر الأول . . فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط . .

ومن ثم كان نَمطاً فريداً بين قواد التاريخ ، لأنه يمزج الفنَّ بالبديهة ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدِّد بالرأى والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة «القُبة والأَعِنة»[1] يصح أن تسمى غريزة الميدان . وقد تصعب المقارنةُ بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وإن كنا نعتقد أن القائد العبقرى تُسعفه عبقريتُه على اختلاف العصر والسلاح .

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه إلى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الإسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوًّا كعدوه فى ميدانٍ كميدانه . فالإسكندر فى وقعة «أربل» هزم جيشاً فارسيًّا تقدر عِدَّته بمائة ألفٍ من

---

(١) كانت المفاخر والمراسم مقسمة على القبائل فى الجاهلية ، فكانت لبنى مخزوم (القبة) وهى مجتمع الجيش ، و (الأعنة) وهى قيادة الفرسان . ارجع إلى ص ٣٣ .

الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس فى وقائع أرمينية هزم جيشاً فارسيًّا تقدر عدته بأربعين ألفاً أو قرابة الأربعين . . والمقارنة بين خالد بن الوليد ، وهذين القائدين ترجح كفتَه على كفتيهما معاً فى هذا الميدان ، لأن الإسكندر كان يقود خمسةً وأربعين ألفاً ، وبلزاريوس كان يقود نيفاً وعشرين ألفاً ، وكلا الجيشين مسلَّح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان . .

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفاً جيوشاً أعظم من الجيوش التى تصدى لها القائدان الكبيران ، ولم يكن له مثلُ سلاح المقدونيين أوسلاح الرومانيين ، ولم يكن نصرُهما كنصره ولا العاقبةُ بعدهما كالعاقبة بعده . وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم ، ومنهم الرومان فى أكبر الميادين ، ميدان اليرموك

فمكانُ خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية . وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهَمة ، وأنه كان ـ كما يقال ـ قائدًا من فَرْع رأسه إلى قدميه .

فَقَد خالد قلنسوتَه يوم اليرموك فقال : اطلبوها . فبحثوا ونظروا فلم يجدوها ، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويُلحوا فى طلبها حتى وجدوها ، فإذا هى خَلَقَةٌ[1] لا تساوى شيئاً . فسئل عن ذلك فقال : «اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم فَحلَق رأسه ، فابتدر[2] النّاسُ شعره فسبقتهم إلى ناصيتِه[3] فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهدْ قتالا وهى معى إلا تبيَّن لى النصر »

رحمه الله ! لم تفته من سِمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب . . فما زال معلوماً عن كبار الجند أنهم يانسون إلى تعويذةٍ يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت . وما فى ذلك من عجب ، فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيبِ من رجل يلقى الموتَ صباح مساء .

وقال خالد فى أخريات عمره : «ما ليلةٌ يُهْدى إلىَّ فيها عروسٌ أنا لها محب ، أو أبشَّر فيها بغلامٍ ، أحبَّ إلىَّ من ليلةٍ شديدة الجليد فى سريَّة من المهاجرين ،أُصبِّحُ بهم العدوَّ ، فعليكم بالجهاد » .

هذا حبيب الحرب الذى يهواها وتهواه . فله منها الصفوةُ التى لا تصطفى بها أحدًا من الطلاب والقرناء على بغْضَاء

---

(١) خلقة : الخلق : القديم البالى .
(٢) ابتدروا شعره : تسابقوا إلى الحصول عليه .
(٣) الناصية : شعر مقدم الرأس .